فدريكو كالديرون دي لا باركا ... شاعر السماء

(١٦٠٠-١٦٨١)

Federico – Calderon de la Barca

د. حبيب القيسي
جامعة بغداد – كلية الاداب
قسم اللغة العربية

مقدمة :

عرف الأدب الأسباني أواخر القرن السادس عشر نوعاً من القصص التراجيدية (المأساوي) ذي الطابع القديم الذي يركز على الاتجاه القومي ، وقد حقق نجاحاً محدوداً ، لان المجتمع كان يكرس اهتمامه الكبير للكوميديا (الملهاة) ، لذلك فان مسرحية نومانثيا La Nuumancia[١] لثر فانتيس (ت ١٨٥٨) بفصولها الاربعة لم تحقق لها قيمة مسرحية عالية على الرغم مما تضمنته من مشاهد تجمع بين المأساة والملهاة وتعج بحركة مليئة بالرعب والمفاجأت .. كما أن التراجيديا الكلاسيكية بعامة ، لم ترس لها مطلقاً قواعد راسخة في شبه الجزيرة الايبرية على غرار ما كان عليه الامر في انكلترا التي شهدت اول تراجيديا فيها هي Gorbudus عام ١٥٦١ لتوماس ساكفيل Thomas Sackville (١٥٣٦-١٦٠٨) [٢] .

تشير الدراسات الادبية الحديثة في اوربا الى أن الاتجاه الرومانتيكي الذي ظهر في فرنسا في الربع الاول من القرن التاسع عشر قد استهدف احتكار المسرح الفرنسي حين كان قلعة التراجيديا الكلاسيكية التي واجهت معارضة قوية منذ زمن بعيد ، وبدأ كتاب المسرح الرومانتيكيون الجدد بكتابة مسرحيات تاريخية ابدى الجمهور تعطشاً لها ، فكانت مسرحية Merimee[٣] El Teatro de Glara Gazul التي نشرت عام ١٨٢٥ مع سلسة مسرحيات دراماتيكية Obritas منسوبة الى كاتبة كوميدية اسبانية باسلوب مستنسخ عن كالديرون ، وربما عن شكسبير ، وقد نشر بعضها مؤخراً ، وكانت هذه الاعمال الادبية تمتلك الكثير من عناصر الرقة والعذوبة التي تخالطها عوامل خشونة وجفاف ، وهو الاسلوب الذي تميزت به اعمال Merimee .

المسرحيات الكوميدية التي كتبها كالديرون ، ومن بعده آخرون من الاسبان كانت تتسم بكونها ذات منطلقات تاريخية بالدرجة الاولى ، وقد حققت لها انتشاراً واسعاً في كل البلدان الناطقة بالأسبانية، مما يؤشر اهمية هذه المسرحيات في الادب الأسباني ، والأوربي بعامة، إضافة آلي المكانة

الأدبية لكالديرون ، فقد كان في نظرهم واحداً من الرموز البارزة في بناء التوجه القومي الكاثوليكي من خلال أعماله الأدبية التي ألهبت المشاعر الوطنية والأحاسيس الدينية للشعب الأسباني بأسلوب رقيق ذي إيقاع جميل.

العصر الذي اعقب وفاة كالديرون سنة ١٦٨١ ((حتى مجيء الرومانتيكية الى اسبانيا كان يفتقر الى الكتاب الكبار، لكنه اشرار ارتفاعاً محسوساً في مستوى ثقافة الطبقة الوسطى في المجتمع، فقد وجدت الرومانتيكية الوافد الى اسبانيا ارضاً ملائمة جداً، حتى كان يميز المجتمع الاسباني عقلية عامة ذات منطلقات تعصبية ملكية مطلقة ، وكاثوليكية متشددة، وهو ما سجل رجوع اسبانيا الى مصاف الدول التي عصفت بها التيارات العالية الكبرى للحركات الروحية ، وذلك حينما الكثير من الشعراء الاسبان بعد عام ١٨٣٠ يستوحون الكوميديا القومية القديمة فكتبوا مسرحيات تاريخية وطنية عبروا فيها، بقوة ، عن حماسهم القدمي بمعان براقة[٤] وبرز في اسبانيا ما سمي بالحركة – الانسكلويدية. وفي الوقت الذي وجدنا فيه الرومانتيكية الفرنسية، والرومانتيكية الانكليزية، قد شقتا طريقيهما الى اسبانيا ، وجدنا ألمانيا تبدي إعجابها بالمسرح الاسباني الكلاسيكي وترفع كالديرون الى قمة المجد الأدبي[٥] ويذكر في هذا الصدد انه قد عثر في جيكوسلوفاكيا (السابقة) عام ١٩٦٣ على مسرحية.

El gran Duque de Iandia

التي كتبها كالديرون عام ١٦٧١ ، وفقدت بعد ذلك التاريخ[٦] تناولت في بحث سابق كلاً من لوبي دي فيغا (١٩٦٢-١٦٣٥) و غنغورا (١٥٦١-١٥٧٦ انموذجين للادب الاسباني في هذه- الموضوعات[٧]. وفدريكو كالديرون دي لاباركا – في هذا البحث هو من ابرز من يمثل هذه الحقبة التاريخية في هذا المجال واصبح سيد المسرح الأسباني بعد وفاة لوبي دي فيغا.

يدور البحث عن كالديرون في محورين رئيسين :

١- مسرح كالديرون : الأيديولوجية، والفن

٢- كالديرون والشعر الغنائي بين الكنيسة والفلسفة.

ومهدت لذلك بنبذة تاريخية عن الأدب الأسباني واتجاهاته عبر العصور .

نرجو منه تعالى العون والتوفيق

تمهيد

-١-

نبذة تاريخية عن الأدب الأسباني عبر العصور :

الأدب الأسباني في نظر المؤرخين الأوربيين يتصف بالغنى ، من خلال ما جسده من مسارات فكرية تطورت في ظل متغيرات تاريخية ، فكان هناك عدد من الأسماء التي تركت بصمات واضحة في الحياة الاسبانية بما قدمته من إنجازات فكرية وادبية لها أهميتها ، في مختلف العصور التاريخية وبخاصة ما بعد القرون الوسطى، أي عصر النهضة، فالعصر الذهبي، ومن ثم عصر الاكلاسيكية المحدثة، فالرومانسية ، وانتهاءً بالعصر الحديث.

في القرن الوسطى ، كان الرومانيون قد حملوا الى شبه جزيرة ايبريا لدى استعمارهم اياها، لغتهم اللاتينية العامية المسماة Serma Rustica التي انشطرت بعدئذ إلى لغتين هما الكاتالان El catalan والفاليسية El GALLEGO، ثم تطورتا الى البرتغالية الحديثة El portugues والقشتالية El Castellanq ، واستمدت القشتالية (الأسبانية الفصيحة) سيادتها من هيمنة مملكة قشتالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فأصبحت اللغة الرسمية سياسياً ، ولغة الأدب الوحيدة في الوقت نفسه(٨).

أما في زمن الفتح العربي لايبريا (٧١١م/ ٩٢هـ) فقد كانت اللغة الجديدة المسماة Romance (القشتالية العامية) هي السائدة.

وكان اول نص ادبي يمثلها قصيدة السيد القنبيطور Gantar de mio Cid (١١٤٠م) التي كانت احدى واجهات الشعر الملحمي في ادب القرون الوسطى ، وتمثل اهتماماً شعبياً يقترب من المشاعر الدينية بنزعة واقعية علمية ذات ملامح شرقية وغربية ، مؤشرة جانباً من توجهات الفرد وهمومه في إطار الإحساس الجمعي ، وفي ظل مناخ اجتماعي عام تستبد به حالات الاحتراب والخصومات بين ممالك وحكومات أسبانية وعربية اسلامية تتحد وتتخاصم مع بعضها، وضد بعضها ، فكان انطلاق ما اسموه بـ (اناشيد المفاخر Cantares de gesta) اداة تعبئة وتحريض للمشاعر .. وقصيدة السيد القنبيطور هذه تقع في هذا السياق ، وكذلك اناشيد ملحمية اخرى مثل ((ملحمة أبناء لارا)) (٩).

أما الفونسو العاشر (العالم) فانه ترك اثراً واضحاً في تاريخ اسبانيا القرن الثالث عشر. وحيث كانت مدرسة المترجمين في طليطلة مركز اشعاع علمي كبير، كان ذلك يشكل ايضا اوسع حركة لانصهار ابرز الثقافات العالمية المعروفة آنذاك، والتي اسماها المؤرخين الاوربيون بالثقافات الدينية

(اليهودية والمسيحية والاسلامية)... لقد كان مثير الحركة الفكرية الواسعة هو الفونسو العاشر الملك الذي اسموه (السياسي الفاشل) و(الملك الضعيف) لكنه كان ايضاً (العالم)، و(الحكيم) ، و(الاديب الكبير) الذي كتب مفاخر السيدة العذراء – Las Cantigas de Santa Maria ، وهي مجموعة تضم (٤٢٠) مقطوعة شعرية تمجد القديسة ماريا ، السيدة العذراء بأسلوب الزجل العربي الذي ظهر في الاندلس في بداية القرن العاشر الميلاد (الرابع الهجري).

ومن الاسماء الادبية البارزة في هذا العصر ايضاً (خوان رويث دي هيتا) Juan Ruiz de Hita رئيس اساقفة هيتا مؤلف اشهر كتاب في القرن الرابع عشر هو كتاب ((الحب الطيب)) El Libro de Buem Amor وترك لنا هذا الاديب قصيدة مهمة فيها الكثير مما يقال: الحب المجنون، وتحذير منه، الاوهام، الاساطير ، الحمية ، الخبث... الاخلاق الرفيعة ، سجايا ، وعادات الخداعين ، والسارقين ... الخ. ويبدو أن هذا الكتاب كان سيرة شخصية له ، بقلمه. ويعكس صورة الانحلال الاجتماعي في عصره بامانه ودقة(١٠).

عصر النهضة :

القرن الخامس عشر يمثل عصر النهضة في اوربا ، وكان يعني ، بالنسبة للاداب – بعث التقاليد الادبية القديمة في عصر الاغريق واللاتينيين في معظم دول اوربا الغربية ، منتقلة بذلك الى المرحلة الاولى للاداب الحديثة فيما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، بعد أن ودعت فترتها الكلاسيكية، والادب الاغريقي – اللاتيني الذي هو أدب واحد بلغتين كانت مسيرة تطوره منذ هوميروس (القرن ٩ ق.م) حتى كلاوديانو Glaudiano(١١) خلال خمسة عشر قرناً قد ظهر فيها عدد من الشعراء والكتاب ، الا أن الفترة الطويلة التي امتدت الف عام بعد زوال. ويجور الظلمة التي اطبقت على سماء اوربا ، لم تقدم سوى رجال دين وفلاسفة ، ومؤرخين كانوا يكتبون باللاتينية ، أي أنهم كانوا فئة من المؤرخين القصاصين والشعراء مسخرين لاغراض معينة، استخدموا اساليب وصيغاً لم تكن ممتزجة مع الحقيقة الإنسانية بما فيها من افكار ومشاعر، ولا عناصر الجمال الفني للشكل أو عمق المضمون– فكانت دون مستوى حاجة الانسان موضوع دراستها، بله الانسان الانموذج.

أما أناشيد المفاخر الدينية في اللغة الاسبانية وغيرها من اللغات الأوربية الأخرى ، فان ما كان فيها من مبادىء النبل والسمو لم يجعل منها عملاً أدبياً فيه صفة الخلود ذلك بسبب خلوها من العناصر التقليدية للأساليب تصنع آداباً تنشدها الجماهير المثقفة في أقطار أوربا آنذاك. وان ما حققته (أناشيد المفاخر) من نجاح في قصص الفروسية في فرنسا ، وانتشارها خارج فرنسا ، انما كان نجاحاً يتعلق بالمضمون وليس بالشكل والاسلوب ؛ إذ لم يكن في تلك الأعمال نصوص كلاسيكية ذات أشكال

أدبية معروفة ، لافتقار تلك المرحلة التاريخية إلى ذلك ، ولهذا لم تحقق الفائدة المرجوة منها في الانتشار لانتفاء الإحساس الأدبي فيها.

وفي القرن الرابع عشر ظهرت بعض ملامح التحول، وهو ما يوضحه لنا (دانتي) في أعماله، والتعليقات التي ظهرت بشأنها بعد وفاته بقليل، بصفته كلاسيكياً ، وذلك لان دانتي يعتبر الأديب الأوسع شهرة في العصر الوسيط، منذ بدأ يتحول في معظمه إلى العصر القديم والتأثر بالأدب الكلاسيكية(١٢).

العصر القديم في اوربا لم يقدم شيئاً ذا اهمية في الأدب . ويعلل الباحثون ذلك بانه نتيجة للغزوات البربرية وانتصار المسيحية ، مما ادى الى اختفاء الأدب في معظمه بعد أن واجه عقبات كأداوات ، لذلك فان ما بقي من هذا الادب في ذلك العصر ، وبعده كان منزوياً ، أو منسياً ، كما أن عدداً من الأدباء اللاتينين المعروفين في العصر الوسيط كله أمثال الشاعر الإيطالي فيرجيليو مارون Virgilio Maron (٧٠-١٧ ق. م) ، والشاعر اللاتيني أو فيديو ناسون Ovidio Nasson (٤٣ ق. م -١٧م) وغيرهما . كانوا مصدر تأثير في أدباء آخرين ، ولكن انحصر ذلك في الاتجاهات الفكرية فقط ، دون الأسلوب ، ولو كانت بعض تلك الأفكار غير مفهومة احياناً ... أي أن المحافظة على التقاليد الأدبية القديمة ، والتأثر بها لم يعد أمراً قائماً حتى مجيء عصر النهضة الذي اعاد ذلك التقليد، فكان ذلك العصر رابع الأحداث الكبرى في تاريخ الأدب الأوربي بعد حركة الإبداع في الأدب الإغريقي ، وعملية التطعيم التي قام بها هذا الأدب للروح الرومانية ، وانهيار الادب الكلاسيكي في نهاية العصر القديم... وما زلنا حتى ألان نلمس بعض مظاهر ذلك في المرحلة الاولى من هذا الحدث، عصر النهضة.أن زوال العصر الوسيط اطلالة المرحلة التاريخية التي تلته كان قد اشرد الادباء الفرنسيون الكبار المسمون بالبلاغيين وكذلك الشعراء من الدرجة المتوسطة الذين واجهوا صعوبات بالغة في ارساء قواعد ثابتة لاساليب الشعر، فصنعوا أسلوبا يجمع بين الشعر والمهارة في اللغة. وحتى أصبحت كلمة البلاغة retorica في ذلك العصر تعني لديهم الشعر، أو بعبارة ادق نظم الشعر، أو بعبارة ادق نظم الشعر versificacion ولعل الشعراء الاكثر اصالة في مرحلة الانتقال هذه هم الشعر الاسبان؛ ففي كاتالونيا ، التي هي اكثر مناطق شبه الجزيرة الايبرية انفتاحاً امام التاثيرات الايطالية ، كان فيها شعراء (التروبادور) الذين يكتبون بلغة كاتلانية ، واشهرهم اوسياس مارج Ausias March (ت ١٤٦٠)، وفي قشتالة الماركيزدي سانتيلانا El Marques de Santillana (١٣٩٨-١٤٥٨) الذي كتب الكثير من الاعمال الادبية ذات التوجيهات الاخلاقية ، أو قصائد الحب المستوحاة احياناً من شعر التروبادور ، أو من دانتي ... ونظم ايضاً على الطريقة الايطالية عدداً من المقطوعات الشعرية التي كانت الاولى من نوعها في اسبانيا .

وفي هذه المرحلة التي بزغت فيها النهضة شهد الادب ايضاً نهضة تمثلت في الصيغ الفنية المبتكرة الجديدة ، وبرز في ذلك الشاعر خوان دي مينا Juan de mena (١٤١١-١٤٥٦) الذي اتسمت اشعاره بالدقة البلاغية والنزعة العلمية اكثر من الغنائية . وكان متاثراً بدانتي .. وبعد ذلك بقليل اصبح العمل الادبي يتسم بالبساطة في الشكل الشعري والصدق في المشاعر . فنرى الشاعر خورخي مانركي Jorge Manrique (١٤٤٠-١٤٧٨) يكتب قبل وفاته بعامين قصيدة بخمسمائة بيت عن موت والده، وهي عبارة عما يسمى بالاسبانية بـ (الكوبلا Copla) بمعنى الاغنية الشعبية ، حيث يقول فيها وبايقاع بسيط وسريع ومثير ، يقول عن الغناء والزوال أنه قدر لا يمكن رده... وكل مسرة في الحياة البشرية زائلة حتماً ، وعلينا الصبر والخضوع لهذا القدر .. واوامر الله لا يمكن الاعتراض عليها، مع الايمان بان هناك لاسعادة ابدية، اكيدة في عالم آخر... وقد آثارت هذه القصيدة الغنائية المشهورة عند ظهورها الكثير من التعليقات والمناقشات وفي مناسبات عديدة في اسبانيا والبرتغال(١٣).

إن ايجاد فن واع في الشعر كان الهدف الاكبر للنهضة، إذ أن المفاهيم المتطرفة، والتصورات البراقة في الفن كانت قد افسدت الشعر وادت الى انهياره السريع في كثير من الاقطار الاوربية ، فالشاعر ماريني اومارينو Marini O'marino (١٥٦٩-١٦٢٥) الذي قضى فترة شبابه المغامرة والحافلة بالضجيج المثير للجدل الادبي العنيف في نابولي ، واستقر بعد ذلك في باريس عام ١٦١٥، كان شعره الغنائي وقصائد الحب التي اهتمت بالرعاة وغرامياتهم في الفترة (١٦٠٢-١٦١٩).

وبخاصة في ادونيس Adonis، وكان يتسم بقريحة وقادة ، وخيال مجنح، ولكن لا شيء من الذوق الادبي ، وكان ماريني يؤكد في كتابة الشعر ضرورة توفر حالة الاندهاش قبل كل شي عادا اياها هدف الشعر الاوحد ". و " نار الفن الخالد "(١٤) أما الشاعر الاسباني (دون لويس دي غنغورا) (١٥٦١-١٦٢٧) من نبلاء قرطبة والقس الخاص بالبلاط الملكي الأسباني ، فقد ابتكر شكلاً مشابها في الوقت نفسه ، ولكن بطريقة مستقلة، واتخذ من شعره رافداً مهماً للفنون البيانية والبلاغية. وكان غنغورا وتلامذته يفخرون باسلوبهم الذي عدوه الانموذج الاكثر كمالاً للاسلوب الجديد ، في حين انبرى لهذا الاسلوب خصوم وصفوه بالتعقيد والغموض الا أن اسلوب غنغورا ساد مدة طويلة في اسبانيا ، وانتشر كذلك في فرنسا وانكلترا والمانيا(١٥) .

-٢-

اتجاهات الادب الاسباني

الملحمة :

اولت الديانة المسيحية الملحمة في الادب الاسباني عناية خاصة، مما جعلها تحقق اوجهاً من السيطرة والشيوع لم تكن مكتشفة الا بعد اواسط القرن السادس عشر ، الا أنه في الوقت الذي وجد فيه الكاثوليك والبروتستانت في الكتاب المقدس (بعهديه القديم والحديث) عالماً ملحمياً حقيقياً ، كما وصفوه ، كان الابداع في هذا الميدان الادبي محدوداً جداً ، بحكم أن هذا الكتاب ، في نظرهم ، يجب أن يحاط بكل مظاهر الاحترام والتقديس مما لا يسمح بظهور العواطف والاحاسيس البشرية الا بحدود ضيقة وضوابط صارمة ، وهكذا اصبح من المعتاد أن تكون القصيدة تاريخاً دينياً مقدساً في صيغة شعر ، وفي اسبانيا – على وجه الخصوص – وهي البلد الذي عرف عنه التمسك بعقيدته الكاثوليكية كانت الملاحم الدينية قد وجدت لها حيزاً واسعاً في الميدان الادبي ، كانت كثيرة ومطولة تعود في معظمهما الى القرن السابع عشر ، الا أن مما ينبغي الاشارة اليه هنا هو أن هذه الملاحم لم يكتب لها أن تعيش لفترة طويلة بعد ظهورها ، وهناك من يرى أن الشعراء الذين حاولوا كتابة الملاحم ابتداءاً من عصر النهضة وحتى القرن التاسع عشر في مختلف اللغات الاوربية كانوا قد فشلوا جميعاً ، وسرعان ما اختفت ملاحمهم، " ولم تعد الانسانية تقرأ وتعجب الا بالملاحم القديمة كالالياذة والاوديسا والانيادة في الغرب ، والمهابرتا والرامايانا في الهند والشاهنامة في فارس"(١٦) الا أن هناك آخرين هناك آخرين يرون ((أن الملحمة لم تمت بذهاب العصر الملحمي ، بل كان تطورها مدهشاً حتى خلال العصر الذهبي . ويعود الفضل في ذلك إلى الرغبة في معارضة المؤلفات الإيطالية المماثلة ، أو إلى الكبرياء في إنشاء مفاخر أسبانية على جميع مسارح العالم ، ولكن نسمة الحياة كانت تعوزها . فهناك الكثير من القصائد الكثير من القصائد الطويلة ظهرت ولم يستطيع أن يخترق العصور منها الا القليل(١٧) .

ومن كل الملاحم الدينية الكثيرة لم تكتب الحياة الا لواحدة هي المسماة Sl Monserrat لكريستوبال دي فيرويس Gristobal de Virues (١٥٥٠-١٦٠٩) (١٨). أما الملاحم التاريخية التي الفت في اسبانيا من قبل لوبي فيفا وغيره في القرن السادس عشر ، ((فقد القيت في زوايا الاهمال بعد ظهور ((الاروكانا)) لا لونسودي ارسيلا أي زينيغابين سنتي ١٥٦٩و ١٥٩٠(١٩).

أدب الصعاليك :

نحو عام ١٥٥٠ ظهر في الأدب الأسباني للمرة الأولى جنس أدبي جديد يعني بموضوعات أسبانية صرف. ذلك هو قصص الصعلكة ، التي تعالج ظاهرة سلوكية خاصة عرفها المجتمع الأسباني مركبة من عناصر ، اجتماعية – سياسية – فكرية معينة ، وهي على النقيض من سلوكية أماديس Amadis الشخصية التي اختارها ثيرفانتيس Miguel de Gervantes Saavedra في قصصه رمزاً لروح الفروسية في القرن السادس عشر ، التي كانت أنموذج الفارس الكامل . المحب المخلص ، الطاهر ، والشاعر والاقطاعي الطيب ... اما الصعلوك في هذه القصص فهو الماكر – الغشاش ، الشيطان المعوز الذي يعيش في الطرقات . أو على هامش الحياة في المدن المكتظة بالسكان ، مقترفاً الكثير من الذنوب والاثام ... مؤلف أول قصة في هذا اللون مجهول ، والقصة هي (حياة دليل لاعمى) La vida del Lazarillo de Tormes ، وقد طبعت للمرة الاولى عام ١٥٥٤ – بطلها خادم ، دليل لأعمى ، ذو حظ عاثر ، وطبيعة شريرة ، وكان في خدمة سبعة ممن استخدموه بمعنى مختلفة دون أن يتعلق بأي منها. ونشر كاتب آخر هو ما تيو المان Matio Aleman (١٥٤٧–١٦١٠) قصة أخرى عن حياة خادم أيضا، عمل جندياً ، متسولاً، مرابياً، طالباً ، زوجاً ، ملاطفاً للنساء واخيراً : محكوماً عليه بالعمل مجذفاً في السفن ، وقد نشر هذه القصة عامي ١٥٩٩و١٦٠٥ بعنوان : قصة حياة الخادم كثمان الفاراجي – La Vida del picodo guzman Alfarachi الذي وصفه بانه يحب، وهو محبوب ، يسرق ، ويسرقونه في قشتالة ... في إيطاليا ، وفي أسبانيا ، عموماً.

السرد القصصي الذي يبني بعضه على مغامرات يكون مصاحباً بانعكاسات سلوكية متشابكة مفعمة بعبير المسرة، ومحلقة في اجواء الخيال في اطار حبكة من الوقائع والاحداث التي تشكل قصصاً قصيرة اخرى داخل القصة نفسها، والمؤلف يعرف كيف يرى وكيف يجعل الاخرين يرون ، وهذه القصص التي ترجمت الى جميع اللغات العالمية ، بما فيها اللاتينية حظيت بنجاح ملحوظ ، ولمدة طويلة... وقد اصبح هذا اللون الادبي متكاملاً في قصة (الصعلوكة خوستينا La Picara Justina– البطلة فيها امرأة... وكتب Quevedo قصة (النصاب) El Buscon (١٦٢٦) ، وهي قصة احتشدت فيها المغامرات ، واصطبغت الواقعية في هذا البناء الروائي – بتشاؤم عميق . وكان هذا هو الاسلوب الامثل الذي استهدفته قصص الفترة السابقة ، وهو ما سمي بالاسلوب الغامض الحافل بالمضامين المركبة[٢٠] وهكذا عرفته اسبانيا هذا النوع من القصص التي هي صورة من نقد المجتمع في ذلك العصر..

ولعل مما يفسر بروز هذا اللون الادبي في اسبانيا القرن السادس عشر هو أن اسبانيا كانت مصابة بدوار النصر والخيلاء نتيجة ما وقر في ذهنها من انها قطفت نصراً كبيراً باسترداد غرناطة

من ايدي العرب من خلال حروب مستمرة دامت ثمانية قرون. وذلك عام ١٤٩٢، وما اعقب ذلك مباشرة من اندفاع اسبانيا لا كتشاف العالم الجديد، حيث سارعت اعداد كبيرة من الاسبان الى الهجرة باتجاه ذلك العالم المجهول، بكل ما لديهم من طاقات وامكانات ، مما شكل عملية إفراغ وافقار لبلادهم، استمراراً لما بدأه فرناندو الكاثوليكي وفرناندو الثاني في اسبانيا ... اما (الذهب) الذي جاء به بعض الاسبان من ذلك العالم الجديد ، أمريكا فقد التهمته وبشراهة الحروب العديدة التي فرضها الأسبان آنذاك، وبدلاً من تمكنهم من اغناء اسبانيا ، أغرقوها في المآسي ... فخلقوا لها ذلك الواقع المرير من العوز الاقتصادي والجدب الاخلاقي ، والسياسي .. وكان هذا الجو افضل بيئة لولادة مثل هذه الفنون الادبية ونموها .. ونقصد بذلك قصص الصعاليك[٢١] وهي جديرة بدراسة مستقلة.

الدراما في عصر النهضة :

كانت الاحتفالات والأعياد الخاصة بالطقوس الدينية في العصر الوسيط قد دفعت بالضرورة إلى إنشاء مؤسسات تسهر على هذه الشؤون في جميع دول اوربا المسيحية . وكانت الدراما الدينية تستنبط من وصايا الكتاب المقدس ، القديم والحديث أو من حياة القديسين اضافة الى ما كان يلتقطه المؤلفون من موضوعات الحياة اليومية لامتاع الناس بها.

وفي بداية عصر النهضة كانت قصص التراجيديا والكوميديا التي خلفها الإغريق والرومان هي المعروفة ، وقد جرت محاولات تقليدها.

وهكذا أصبحت العناصر الأربعة الرئيسة التي تشكل الجذور التاريخية للمسرح الاوربي ، وهي الدراما الدينية ، والتراجيديا ، والكوميديا ، والقصص الاخلاقية ، وقد اتخذ المسرح في عصر النهضة اشكالاً مختلفة في الدول الغربية الرئيسة ، ففي فرنسا وايطاليا كانت قصص التراجيديا والكوميديا المستنسخة عن النماذج القديمة قد تحولت وبسرعة الى أشكال مختلفة بعضها عن البعض الآخر في هذين البلدين . وفي اسبانيا وانكلترا كانت الصيغة المفضلة هي الدراما الحرة أي (المسرح الحر)، الذي تختلط فيه التراجيديا- بالكوميديا. ولا يلاحظ – تقريباً، أي نوع من أنواع المسرح القديم ، وهذا المسرح الجديد ، هو بالأساس من آثار عصر النهضة الذي ظهرت فيه ابرز صور الإبداع الفني والتنوير الأدبي، وأغناها.

والمسرح الاسباني – على وجه الخصوص- يعد منذ بداياته الاولى، مستقلاً عن غيره في الدول الاوربية الاخرى ، ولم يتأثر الا قليلاً جداً ، بالمسرح الايطالي، ويمكن أن يعد ايضاً وطنيا خالصاً، بدأ بالظهور والتميز التدريجي ، منسلخاً من القصص الديني للعصور الوسطى من خلال سلسلة جهود ومحاولات امتدت طوال القرن السادس عشر تقريباً ، وكان للبرتغال دور مهم في هذه البدايات، لكن الكتاب البرتغاليين اعتادوا كتابة اعمالهم الادبية باللغة القشتالية[٢٢].

لقد كان خوان دل انثينا Juan del Emcena (١٤٦٩-١٥٣٩)الذي كني بابي المسرح الاسباني قد كتب في نهاية القرن الخامس عشر – اربع عشرة قصيدة رعوية Eglogas أو محاورات مسرحية ، وكانت هذه كلها تقريباً دينية تمثل عيد ميلاد السيد المسيح، أو البعث ، وأبطالها رعاة يظهرون بصفة ملائكة. وكان قسم من تلك– المسرحيات بعرض في مسارح شعبية... لكن المؤسس الحقيقي للمسرح الأسباني هولوبي دي رويدا Lope de Rueda (ت ١٥٦٥) الذي قضى فترة شبابه في اشبيلية، وقد مارس التمثيل الى جانب التاليف ، وكان اول ما أخرجه– مسرح الكنيسة أو قصر العظماء– هو اول ما استقر في المساحة الفنية العامة لهذه المدينة التي عرف عنها شغفها بالفن ... وانفتح امام هذا الفنان الطريق للانتشار في مختلف المدن الأسبانية الأخرى ، فلقي مسرحه هذا استقبالاً شعبياً حاراً ، وكان هذا الاتجاه حاسماً في تاريخ المسرح الأسباني... وبعد ذلك كتب (دي رويدا) كوميديات مستنسخة عن المسرح الايطالي، وبخاصة الكوميديات التي تعالج العادات ، والطبيعة والظرافة الاجتماعية ... وانتهج هذا السبيل معظم الأدباء الأسبان في الثلث الأخير من القرن السادس عشر (٢٣).

أما المسرحية الوطنية، فقد كان اول من كتب فيها (اخوان دي لاكويفا Juan de la Cueva (١٥٥٠-١٦١٠) ، ومنها المسرحية المشهورة (أبناء لارا السبعة) التي اشرنا اليها سابقاً ... وهكذا مضى وقت طويل والمسرح يحتل الموقع الرئيس في الادب الاسباني ...وتعد مدريد واشبيلية وفالنثيا ومراكز للمسرح من الطراز الاول ، وفيها العديد من الكتاب البارزين في هذا الميدان.

لقد تزامن نضج المسرح الاسباني مع المسرح الانكليزي ، وذلك حوالي عام ١٥٩٠، واستمر تصاعد نشاط المسرح في اسبانيا حتى عام ١٦٨٠ بعد أن سجل ازدهاراً ملحوظاً خلال الفترة ١٦٠٠-١٦٦٠ ، حيث كان عدد المسارح كبيراً جداً ، ترتادها مجموع غفيرة من المشاهدين رجالاً ونساءً . حتى أصبح المسرح يشكل جزءً أساسيا من متطلبات الحياة الاجتماعية العامة والتوجهات الذوقية الفنية للشخص الأسباني وبسبب ذلك كان من الطبيعي أن تنشط حركة التأليف المسرحي لمواجهة الطلب المتزايد عليه – مما كان يترك احياناً بعض الاثار السلبية على مستوى ذلك التأليف من الناحية الفنية بحكم التعجل ... إلا أن تلك المسرحيات الكوميدية ، كانت في العادة تكتب بصيغة شعرية ذات أوزان عروضيته متعددة ، مما جعل هذه المرونة العروضية ، اضافة الى التعددية في الموضوعات التي تتضمنها ، تضفي على تلك المسرحيات طابع الجمال والفتنة بما تتضمنه من النكتة النادرة والتورية البارعة.

أما في مجال الكوميديا المسماة (الكوميديا العبادة والسيف – (Capa Espada) فكانت تلك المسرحيات التي تمثل عادات وتقاليد معاصرة لحياة طبقة النبلاء – وطبقة الكسالى المترهلين في

مجتمع القرن السابع عشر. اما الكوميديا ذات الطابع الديني، والتي تعالج قضايا تاريخية ووطنية، وكذلك كوميديا الفروسية والبطولة ، أو الرعوية والاسطورية، فكانت كلها تكتب في شكل واحد ثابت.

أن النزعة الاساسية التي كانت تسيطر على هذا المسرح. هي فورة الوجدان واتقاد العاطفة ،وما ينبعث من ذلك متجسداً. في الحب العارم أحياناً، والغيرة والانتقام احياناً اخرى واخيراً- الايمان الكاثوليكي المطلق، والاخلاص للملك والاعتقاد بمفاهيم خاصة لبعض القيم الاجتماعية ، كالشرف، وغيره الى حد التعصب ، والوهم وهذا يشكل ملمحاً يميز المسرح الأسباني بكونه مسرحاً لايوجه اهتماماً الى القضايا الكبيرة حول الحياة الإنسانية التي ترتبط باهتمام دائم بالنسبة لمسرح شكسبير ومسرح موليير. وان مما يفسر هذا هو أن العقلية الأسبانية آنذاك كانت تجنح في الغالب الى الخيال. اما التأمل الفلسفي فأن ضوابط الارثودكسية المسيحية كانت تحدده بصرامة باعتبارها المؤسسة الوحيدة المسؤولة عن ذلك.

وتبقى قضايا الفن، وعلاقته بالمجتمع واذواق الناس، وما الى ذلك مسألة اخرى لا تقتضي اكثر من تامين العدد الكافي من المسرحيات، ولو كانت تكتب على عجل لتغطية حاجة المجتمع في قضاء الوقت بمشاهدة الممثلين ، حسب.. لذلك جاءت الشخوص المسرحية في معظمها سطحية، وفيها ومضات بريق ولمعان لكي توازن مسالة النقص في العمق الفني .

الفصل الاول

- ١ -

مسرح كالديرون دي لاباركا :

الأيديولوجية والفن :

يعد دون بدرو كالديرون دي لاباركا، الى جانب لوبي دي فيغا، الشخصية الاكثر تالقاً في المسرح الاسباني . أنه من عائلة ارستقراطية اصلها من الجبل. ولد في مدريد ودرس مع الجزويت ، وحارب في عدة ميادين ، واصبح قساً في الحادية والخمسين من عمره ، وعين كبير أساقفة البلاط الملكي ، ولعل ذلك كان من بين دواعي احراز اعماله الادبية نجاحها وشهرتها... عالج كالديرون في مسرحياته الموضوعات نفسها التي سبقة اليها (لوبي دي فيغا) ، كما انه لم يبتعد كثيراً عن الروح التي عالج بها دي فيغا موضوعاته تلك ، مما يشير بوضوح الى أن كالديرون لم يكن ، وبخاصة في نظر دارسيه، قد اصاب ، حقيقة خطأ وافراً من الابتكار والتجديد في اعماله الادبية ، الا أن ذلك لم يحل دون تمكنه من التفرد بخصائص معينة لفتت اليها الانتباه ، مما رسم في النهاية، صورة واضحة لاديب من طراز خاص اندمج في روح عصره ، فمثل ذلك العصر بروحه وايديولوجيته الخاصة ، مما عكس توجهاً معيناً بقي يتفاعل مع العصر اجتماعياً وسياسياً حتى استوى اخيراً ، نمطاً ادبياً يحمل

شيئاً من التجديد والابتكار ، ولكنه يتفاعل من الاعماق، مع احداث التاريخ ومتغيراته ، باسلوب متميز ساد مجمل اعماله الدراسية الكثيرة ، اذ كتب معظمها من الدراما التاريخية بأدق تفاصيلها ، واوسع آفاقها ، مؤكدة قبل هذا وذاك على الامزجة البشرية وعادات الامم . جمهوره كان يتطلع بحماس شديد الى أن (يرى الاسبان في كل مكان) وأذا كانت افضل اعماله المسرحية المنتزعة من التاريخ القومي هي (EL ALCAL DE DE ZALAMEA) – عمدة مدينة تالاميا) التي كتبها بين عامي ١٦٢٥-١٦٣٢ قد عالجت هذا الموضوع الذي تناوله قبله (لوبي دي فيغا) وبالعنوان نفسه ، فان النقاد لم يترددوا في التاكيد على اهمية مسرحية (كالديرون) هذه التي وصفوها بروعة شخصياتها المتالقة. البطولية والشعبية... هذا الى جانب أن هناك مسرحيات اخرى لكالديرون اكثر شهرة منها هي :

El prinipe Constante	(الامير المخلص)
El Pintor de su deshoura	(الرسام المعيب)
El Medico de su houra	(الطبيب الشريف)
A secreto agravio	(نحو سر مهين)
Secreta venganza	(أنتقام خفي)
El Tetrarca de Jerusalen	(القدس المفتوحة)

وقد تجسدت في هذه المسرحيات ثلاث خصائص أساسية ميزت مسرح كالديرون هي : العقيدة الدينية المتعصبة ، والخضوع المطلق لشخص الملك ، وتقديس شرف العائلة الى حد المبالغة الشديدة ، وهو ما تميز به كالديرون عن اسلافه في هذا الامر.

أن الكوميديا الاخلاقية المعروفة بـ (العباءة والسيف Capa Espalda) لم تبلغ ما بلغته هذه المسرحيات من فاعلية وتاثير في جمهور المسرح ، غير أن مسرحيتي (لامزاح في الحب – No hay burlas Con el amor) و(حذار من الماء الوديع – Guardate de agua mansa) كانتا تعدان عملين لهما أهمية خاصة من حيث كونهما يمثلان اكمل صورة انموذجية لهذا النون المسرحي . واذا كان بين هاتين المسرحيتين تشابه واضح في العناصر الفنية ، كالنماذج البشرية والأحداث ، والمكائد و الخداع ، الا أن تركيب هذه العناصر كان ياتي دائماً بطرق جديدة. وأساليب مختلفة، مما يقدم دليلاً على خصوبة الخيال واحساس نادر بمفهوم المسرح ووظيفته . لقد اتسمت هاتان المسرحيتان بالعبقرية والبراعة في التصوير لعادات وقضايا اجتماعية بهدف إنعاش الحس الأسباني بالمفهوم التقومي في القرن السابع عشر.

كان كالديرون متميزا إلى حد التفرد في صياغة نظريته الدينية الخاصة من خلال أعماله

الأدبية ، تلك النظرية التي تتلخص في أن الحياة البشرية في جوهرها، لا تخرج عن كونها حقيقة مركبة من عنصرين أثنين : دنيوي ، مادي ، موقت ، وآخر علوي ، الهي ، سرمدي : الاول يمتلك ناصية (الملك).. والثاني هو (لله تعالى). وقد جسد كالديرون هذا المفهوم في اثنتين وسبعين مسرحية دينية (اوتو auto) ، أو (دراما تيولوجية) ، وكانت تلك المسرحيات تعرض في الساحات العامة، خلال المناسبات الجماهيرية مثل عيد القربان والاحتفالات الدينية الآخرى كما امتد اهتمام كالديرون الى الفلسفة ، فكتب كوميديات فلسفية ودينية متعصبة ، وبافراط ، ويرى بعض الباحثين في هذه الاعمال شذرات من الفكر الفلسفي الذي كان المجتمع الاسباني به حاجة الى امثالها ؛ فان فكرة (الحياة حلم) تقدم عنصراً نادراً جداً في اهميته التوجيهية في المسرح الاسباني ، كما أن (عبادة الصليب) تجسد فكرة أن (النية الحسنة) تشكل ملاذاً آمناً للانسان ، حتى لو جاءت متاخرة ، فأن (بفضيلة الصليب) يمكن أن تمحى كل الذنوب والاوثان التي يقترفها بنو البشر[٢٥] وهكذا يكتشف كالديرون عن قدرة خاصة في أسلوب الحوار الديني ، والتاكيد على مبدأ التطرف في التدين ، من ناحية ، والحرص على أهمية التوجيه الاجتماعي بالاساليب الفعالة من اجل خلق المعادلات اللازمة في نظرية الحياة التي تجمع بين الجانبين المادي والروحي في اتجاه تواصل الحياة وتطورها من ناحية اخرى ، ولعل ذلك يشير كما أرى ، الى أن طبيعة المجتمع الأسباني في ذلك العصر مع ما كان يحمله ذلك المجتمع من تراكمات تاريخية. وتفاعلات حضارية واسعة ومثمرة مع العرب والاسلام. كل ذلك كان قد مهد السبيل لهذا الاتجاه المتوازن في النظرية الاجتماعية المبنية على مبادىء فلسفية . أن لم نقل قد فرضه فرضاً .

يصنف كالديرون بأنه المؤلف الدرامي الاكثر شهرة في اسبانيا، بعد لوبي دي فيغا، وتيرسودي مولينا، من خلال اعماله الكثيرة ، التي اتسمت بالبحث النظري ، والتامل العميق في موضوعات تتعلق بالبلاط والروح العسكرية والفروسية ، وذلك تحكم منطلقاً له الاجتماعية ، فقد كان نبيلاً ، جندياً ، قساً قريباً من الملك، ليست الحياة في نظره الا حلماً. ومن هذا المعتقد جاءت مسرحيته الشهيرة (الحياة حلم)، التي صور الحياة فيها بانها شطران: حياة ارضية عابرة ، واخرى علوية خالدة ، وان اما يجمع هذين الشطرين أمر واحد سماه (الشرف) الذي له مفهوم خاص عنده يوضحه بقوله:

Al Rey La Hacienda yla vida
Se ha de drt pero el honor
Es patrimonio de alma
Yel alma sobo Es de Dios

(والمعنى العام – الى الملك امور المال والحياة أما الشرف فهو ميراث الروح التي هي من

الله . و(الحياة حلم) ذات شهرة عالمية تشرح الفكرة القائلة بان رجل الطبيعة هو نوع من الحيوان المتوحش الذي لا ينتصر على غرائزه الخشنة الا بالعقل المرتكز على الايمان. وكل شيء وهمي وكذب من ناحية العقل، وليس هناك من حقيقة الا في العالم السرمدي))[٢٦] .

وانطلاقاً من هذه الأيديولوجية صاغ كالديرون صورة (مجدة الادبي) فقدم شخصية صارمة لبطل وشهيد في روايته (الامير الوفي– El prineipe Constante) التي اعجب بها (غوته) ايما اعجاب، ابرزها في المانيا عام ١٨١١ وهيأ لها الانتشار، من خلال مسرح Weimar الشهير هناك . وقد صفق لهذه الرواية بحرارة ، وفرح بها الرومانتيكيون، واهتز لها الشاب (شوينهاور Schopenhauer) من الاعماق. وهكذا فتحت لمسرحيات كالديرون أبواب المسرح الالماني على اوسع نطاق منذ ذلك الوقت فاصبح لكالديرون، تاثير واضح في الحياة الادبية في المانيا ، وكان (ريكادور فاغز Ricardo Wagner) من اكثر الادباء الالمان تأثراً به... وفي اسبانيا نفسها كان لكالدرون تأثيره الكبير على الشعر الذي انحسر أمام ذلك المد المسرحي ، وما حققه من سحر استثنائي في الوقت الذي اتسعت فيه الهوة بين ما اسموه بـ (الفنتازيا) و(الواقعية) في ميدان الشعر ، مما ادى الى الاندفاع الجماهيري الهائل نحو المسرح ، ولم يتمكن الكتاب والهجاؤون (Satiricos) من امثال Aleman المان وكيفيدو Quevedo و Gaeian من أن يتوصلوا الى ملء الفجوة التي سببها ذلك الهبوط في مستوى النتاج الأدبي.

من عقلية التهكم الحاد، والهزل المفرط، والسخرية القاسية التي مارسها اولئك الكتاب في احيان كثيرة، وبكل المستويات...من هذه الخلفية الفكرية انبثقت قصة الصعلكة Novela Picaresca التي كان لها صدى واسع في اوربا، فكانت تحكي حياة المتشردين والشياطين الفقراء امثال (لاثارايليو Lazarillo) وغثمان Guzman والبسكون El B. us con . ولعل ظهور هذا اللون الادبي كان نتيجة طبيعة لظروف تاريخية – دينية – اجتماعية ، وقد خالط مفهوم هذه القصة شيء من العتمة. بل من سوء الفهم ، فلم يكن ثمة تفريق بين حالة البؤس الصارم وظروف العثرات الطارئة... ومع ذلك بقي هؤلاء (الصعاليك) محافظين على مرحهم ومسرتهم حتى في غمرة فقرهم الشديد ، توصلا الى رؤية السماء ، مناط الرجال ومعقل الثقة.

الطابع الاسباني " لاولاد البؤس " هؤلاء يتمثل في انهم لا يشعرون مطلقاً بانهم بائسون مهشمون .. أنهم يشكون انفسهم ، وليست أمالهم في الله أو في (اسبانيا) .. هؤلاء الصعاليك العراة الذين يبتسمون بخبث ، تغمرهم مشاعر الثقة في انفسهم متمثلة في قيمتهم الانسانية وشرفهم . حتى اننا نجد صيغة البطولة في اخوة المشردين والسراق الذين وصفهم لنا (ثيرفانتيس) بروح طلية فكهة في قصيدة (زاوية وكأس صغيرة – Rinconcte y Gortadillo) . وكان هذا يشكل ملمحاً لأيديولوجية خاصة انعكست في الغزو الأوربي في ظروف تاريخية معينة ، وبخاصة في اسبانيا ، كما

سبق أن ذكرنا .

المسرح ساحة قتال :

نتاج كالديرون الادبي غزير[٢٦] مسرحية ثمانون منها دينية (اوتو auto) ويذكر بعضهم انها ١١١ كوميدية و٧٠ دينية) وعمر احدى وثمانين سنة . شخصية واسعة الابعاد ، مليئة بالاسرار يلفها الهدوء لكنه يتميز بثبات الرأي وصلابة الموقف، وهو ماكسب تلك الشخصية العملاقة ابعادها الادبية والانسانية. ادبه حافل بمعان خاصة للحياة بشقيها الذاتي والعام ، شكلت منطلقات لمبادى وقيم في معرفة العالم ، والطبيعة، والخلود. وهي مختلفة تماماً عما كان شائعاً في عصره، حين عم المجتمع الاسباني بطبقاته كافة، روح الخدر والتواكل، والذي سبب حالة الجمود للحياة الاسبانية ، فوجدت اسبانيا نفسها، بعد تحرك اوربا ، مقيدة بالماضي . مبدئية كالديرون السياسية كانت تتخذ من الولاء المطلق للنظام الملكي محوراً رئيساً، وطراز حياته الخاصة ارستقراطي،من صميم حاشية البلاط. معتقداته الدينية الكاثوليكية محافظة وتناوئ التوجيهات الاصلاحية ، نزعته الوطنية العسكرية المتصلبة ، واحساسه بالطبيعية مبنيان على مفهومه الخاص للعالم الهلوي المدهش ، وقد تضمن هذه التفاصيل كلها عالمية الفكري ، الذي انعكس في نتاجه الادبي، الا أن ذلك كله لم يكن يؤبه به في عصره ، كما يبدو، ذلك لان الطبيعة حسب مفهومه لها كانت قد فقدت سحرها وجمالها بسبب ما حصل في مضامينها الموروثة من تطورات علمية حديثة من قبيل اكتشافات كوبرنيكوس ، وكبلر، وديكارت، وغاليليو، مما ادى الى ظهور تحديات للعقيدة الكنسية الاسبانية ، وتحول العالم الى الاعتقاد الجديد بان الشمس هي مركز الكون بدلاً من الارض ، وفي هذا الظرف التاريخي بالذات كانت الإمبراطورية الأسبانية ، التي يمجدها كالديرون ويشيد بعظمتها، ونفوذها الديني على صعيد القارة الأوربية، كانت تعاني مجابهة غير معلنة من قبل هولندا وانكلترا وفرنسا ، مما أدى إلى ضعفها وانهيار سلطتها الكاثوليكية بحكم تفوق نزعة الفردية الدينية للشعوب الجرمانية نتيجة الجهود التي قام بها المفكرون الأحرار في إيطاليا وفرنسا. أما الملكية المطلقة فهي وحدها التي استقرت وترسخت بقوة في الدول الأوربية التي تفردت في هذا الأمر عند كل الدول الأخرى في العالم. ومنها اسبانيا، فمن هذا البلاط الملكي الأسباني وبخاصة في عهد فيليبي الرابع (الملك الطيب-كما نعت) الذي كان شغوفاً بالاحتفالات، والمسارح، عم المجتمع الأسباني الخدر والجمود ، وهنا كان مقدراً لاسبانيا أن تبقى حبيسة الماضي في الوقت الذي كانت أقطار أوربا الاخرى في حال مغايرة ... وهكذا تلقت الامبراطورية الاسبانية ضربات شديدة وموجعة ، فكان انفصال البرتغال عنها ، وكذلك انسلاخ مقاطعات في شمال فرنسا، وقيام ثورة الكاتالانيين ومع كل هذه الظروف بقيت اسبانيا على ما كانت عليه من التراخي والخدر ، كما لو ان الزمن متوقف... كان الملك فيليبي الرابع ملكاً (مصوناً غير مسؤول) طوال اربعة واربعين عاماً (١٦٢١-١٦٦٥).

وقد كتب كالديرون اعماله الدرامية خلال هذه الفترة .وهنا يمكن قراءة هذه الحقبة التاريخية بوضوح من خلال الملامح التي برزت على وجه هذا الملك الصامت في اللوحات الخمس والعشرين التي أبدعتها ريشة الرسام فيلاثكيت Velagqueg وتلامذته ... كما نتعرف أيضا على ذوق هذا الملك ، وعقليته من خلال مسرحيات كالديرون التي كان الملك يفضلها على المسرحيات الاخرى(٢٧).

المسرح يتداخل مع ساحة القتال لدى كالديرون ، فحين تفجرت ثورة كاتالونيا عام ١٦٤٠ تسارعت كتيبة سانتياغو التي كان كالديرون احد فرسانها الشجعان، إلى الاندفاع بحماس لمواجهة الموقف ولكن الملك فيليب الرابع لم يأذن لكالديرون بان يذهب مع كتيبته الى كاتالونيا، مكلفاً اياه، بصفته افضل شعرائه القيام بمهام ادبية يتطلبها الاحتفال بتدشين مسرح جديد(٢٨) ضمن برامج الملك الثقافية والاجتماعية ، الا أن كالديرون الذي سبق له أن شارك في الحرب في كل من ايطاليا وفرنسا وبلجيكا وهولندا دفاعاً عن الملك وإمبراطوريته وعرف بالشجاعة والاقدام مع الاخلاص للملك ، تمكن من انجاز مهمته الأدبية تاليف مسرحية يدشن بها المسرح المذكور والتحق في ظرف ثمانية ايام بعد ذلك، بالجيش الذي كان يشن حملاته العسكرية في كاتالونيا... فكانت ساحة القتال والمسرح شيئاً واحدا عنده وكان هذا من صميم معتقدة الفلسفي في الحياة؛ اذ أنه كان يؤمن بان كل شيء في الحياة انما هو حدث عابر، سريع الزوال، وان ما هو موقت ليس الامسرحاً يضم اشخاصاً، لهم ادوار... وانه (المسرح) ليس الا مسرح العالم الكبير وخلاصة ذلك عنده: أن الحياة، بكل احداثها، عرض زائل ، كما هي احداث المسرح ، الامر الذي يمكن أن نستنتج منه أن كالديرون لم يكن يؤمن بـ (حقيقة التاريخ). أو أن في التاريخ (حقيقة) ، بل انه اكثر من ذلك ، لم يكن يؤمن بان للحياة معنى مستقلاً ، وان (الزمن) بمعناه المطلق ليس الا قائمة انتظار للخلود .. وأن (الحياة) عند الانسان ما هي الا (مقدمة لـ (يقظة) . وهذه اليقظة هي (معرفة الله)... لذلك اعرض عن الاهتمام بالحياة، بأساليب البورجوازية في هذا العالم الدنيوي تلك الاساليب التي تعني بالثروة وبحبوحة العيش.

أن مجموع هذه المبادى الفلسفية والقيم الدينية التي مارسها في حياته ، ابتداء من شبابه المبكر فارساً عاشقاً ، جندياً ، شاعراً (من حاشية البلاط في سن النضج) وقسا (اذا عادات لا تحسن – منذ سن الحادية والخمسين حتى وفاته)... كل ذلك لم يمنعه من الاستمرار في نهج تقنيدي منظم متوازن ، بعيداً عن الارتكاس في بوهيمية الحياة ، من ناحية ، وعن التهرب المطلق عن الحياة ، من ناحية اخرى، كما تجلى ذلك في الاتجاه الرومانسي الذي يرفض اسلوب الحياة البرجوازية وسياقاتها الروتينية، ولايكون في الوقت نفسه حبيس رهبانية الاديرة، متهرباً من عالم الواقع ..بل نراه يواظب نشاطه بأصرار في خدمة اتجاه (البطولية) الشجاعة المطعمة بمفهوم خاص للمبدأ– الاخلاقي الذي يسميه بـ (الشرف) والذي يحكم علاقته بالملك والمجتمع والكنيسة، ومن منطلقات هذا المفهوم الخاص للشرف يصوغ كالديرون اسلوب حياته بكل تفاصيلها. بما يجعلها بعيدة عن الانغلاق والاهداف الفردية

المحدودة، مؤكداً ان الشرف (القومي الاسباني) بهذا المعنى. ينبع من مصدرين : الاول هو (الله تعالى) من حيث كونه (الروح). والاخر هو (الملك) الذي تسلم ذلك الشرف من الله ، فاكسبه (الملك) قيمة (دنيوية موقتة ، موجداً من كل ذلك قوة اساسية في حياة المجتمع الاسباني وهذا هو مبدأ (الشرف الاصيل) الذي تجسد في المسرحيات التي ضخ فيها كالديرون الكثير من مشاعر مواطنيه نحو مفهوم هذا المبدأ . ومن امثال هذه المسرحيات:

El medico de su honra	(الطبيب الشريف)
El pintor de su deshonra	(الرسام غير الشريف)
A secreto agravio	نحو اهانة سرية
A secreto ay\gra uio – secrta venganga	الانتقام السري

هذا بالاضافة الى الكثير من كوميديا (العباءة والسيف Gopa E Espada) الاخلاقية التي يجيء فيها مفهوم الشرف نابعاً من معنى الفروسية . ويرتبط هذا المفهوم لدى كالديرون ارتباط جوهرياً بالجانب الاجتماعي والسلوكي للإنسان ، ويشكل أساساً مبدئياً ثابتاً، من يرفضه ارادته في الوجود الامر الذي يؤكد تواصلاً متكاملاً بين الوجود المادي (الفيزياوي) والوجود الروحي بصوره كافة :

الكرامة، الحق، القوة (بمعناها الاجتماعي الإنساني) ... ذلك لان الانسان الذي لا تستقر في ثنايا كيانه المادي عناصر الشرف وثوابته ... (أي – من لا يسكن جلده الشرف ، كما يقال) يبقى حبيساً في (مملكة الحيوان).

و(أن شعباً بدون قيم الشرف يبدو لنا مجرد قطيع من الحيوانات) [٢٩].

لقد تحسس كالديرون باسلوبية تاملية واعية وعميقة القيمة الروحية (الخالدة) لمفهوم الشرف ، الذي كان موضوعاً لا تجاهات شتى ومذاهب مختلفة في عصره ، يحدد هو بقوله:

Al Rey . la hacieenda y la vida ... etc

(الى الملك يعود امر المال وشؤون الحياة... أما الشرف فهو ميراث الروح ، والروح هي من الله حصراً...) [٣٠] كما سبق أن مر بنا.

أن هذه المنهجية الفكرية– المذهبية السلوكية حول مفهوم معين للشرف، تتفاعل فيه قيم اجتماعية وانسانية ولا هويته ثابتة ، مع أخرى دنيوية – (ملكية – حصراً) ، الامر الذي يستنتج منه أم كالديرون ينتمي (فكرياً، وايديولوجياً) الى عالمين مختلفين: الاول غير دينوي، غير موقت ، الثاني يمثل عالم اللحظة ، وهو عالم فان مبني على مظاهر خارجية للمجد والشرف... وقد اختفت في الحقيقة هذه المظاهر مع اختفاء الملكية الاسبانية بعد عصر كالديرون. ولعلنا لا نجد كاتباً اسبانياً ، أو

اوربياً، بصورة عامة بعد كالديرون ، من كان يرى نفسه متفقاً أو غير متفق بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، حول القيم الخالدة والبهرجة الزخرفية للحياة الدنيوية الموقتة ... وبالنسبة لكالديرون يمكن القول بانه لم يتخذ موقفاً وسطاً بين موقفين متطرفين كالتطرف بين الصمت والفوضى ... بين العزلة المطلقة عن الحياة ، وبين ضجيجها اليومي وصخبها .... فقد كان مشاعر اللحظة التي تجمع بين بهرجة الاعياد ، وزخرف الابهة .. من ناحية ، وبين لحظة التواصل مع ما هو خالد ، وباق ابداً من ناحية اخرى ، كان يغني للحياة اعجاباً بها ، وزهواً بالاشياء التي تزخر بها ، من ناحية كما كان يغني للخلود من ناحية اخرى ، وهو بذلك يجافي الحقيقة في اكثر الاحيان ، ولا يتحسس بحركة التاريخ التي تتطور ببطء ؛ لكننا نجد كالديرون .مع كل هذا ، يفاجئنا ، ولو في حالات نادرة ، باعترافه بان للمعارك والحروب ، واهتمامات العالم الدنيوي المختلفة ،معنى مادياً ملموساً وحيداً وبخاصة بالنسبة للشعب الاسباني ،ويجسد هذا المفهوم في مسرحيته (El Alcalde de Zalamea) حاكم مدينة تالوميا) التي كتبها بين عامي ١٦٢٥ و ١٦٣٢ والتي قص فيها بتاثير حساس وشديد باليأس والاحباط مأساة مناقشة قضائية بين السلطتين المدنية و العسكرية ، متاثراً في ذلك بسلفه (لوبي أي فيغا).

من خلال ما تقدم قد يظل تساؤل : هل أن كالديرون يعد مؤسس المدرسة الاخلاقية في الادب الاسباني ، وفي اوربا بعامة .. أو : يرتقي الى مستوى الريادة لمدرسة اخلاقية ((اسبانية، أو اوربية ؟ هذا لا يمكن تاكيده الان وقد تتوفر لدينا عن ذلك معلومات اخرى لا حقاً.

الفصل الثاني

– ٢ –

كالديرون شاعر غنائي بين الكنيسة والفلسفة

اذا كان كالديرون – حقيقة – لم يبلغ ما بلغه لوبي دي فيغا في مستوى الابداع الادبي ،كما يرى بعض الباحثين ، فان كالديرون هو اول من مثل الصورة الانموذج التي حققها في اعماله الادبية من حيث موضوعاتها وتوجهاتها ، كما انه غير اول من مثل عصره في تلك الاتجاهات بالرغم من أنه لم يكن قد ابتعد كثيراً عن غنغورا في اسلوبه الذي ركز على عناصر التأمل والمبالغة والصنعة اللفظية، والمحسنات البيانية المختلفة.

وقد حقق كالديورن تفوقاً بارزاً في الكثير مما كتبه من اشعار غنائية وشّى بها اعماله الدرامية ، ومن هنا سمي بالشاعر الغنائي الاكبر(٣١).

تنقسم اعمال كالديرون بصورة عامة الى قصص درامية ذات مضامين (دنيوية) ممتعة

ومسلية... واخرى ذات منطلقات دينية ، وقصص اخرى مختلفة يمتزج فيها العجز والقدرة ، العجز البشري ، والقدرة الالهية.

ويؤدي ذلك الامتزاج أما إلى التلاشي ، أو التكامل ، لكن ذلك يحصل دائماً عن طريق الخوارق التي تستعصي على الشرح. أن عظمة دراما كالديرون ، وفي الوقت نفسه ، نقصها الاكبر ، ويكمنان اساسا في اسلوبه الخاص الذي يتنقل بنا من خلاله ، في بعض الاحيان ، من الجو المثالي الاكثر سموا الى صميم معمعة الحركة والنشاط للحياة الاسبانية في القرن السابع عشر .. أو كما يحدث احياناً. يجعلنا ندخل ممكلة السحر ، فقد كان شارع السحر المدهش ، مثل بطله سبريانو Sipriano المشهور ... في اعياده تتركز جميع عناصر المؤثرات الخادعة التي تدور اشباحاً تتعقد ، وتتحد ، وتتنافر ، كما تتناغم اعماله الدينية وتتشابك في مفهومها العقيدي كأنها نوع من السيمفونيات الغامضة التي يمكن تحسسها موسيقياً... من العوالم المسيحية والوثنية .. من الاجواء العليا للخلود ، ومن قاع الجحيم تاتي الاستجابة والردود على البشر وحركنهم في هذا العالم تصك آذانهم اصوات الرعد والبرق ، كما تبهج اسماعهم الموسيقى والاغاريد ، ثم أن هناك عقاباً وثواباً : وساوس اغراء ، اغواء ، انقاذ وتحرير .. تقدم في صيغه اغنية (Canto) ، عاصفة زلزال ، طبول ، واصوات ، ابواق .. ما اجل مظاهر الترف والمراسيم الخاصة بالتأبين ...[٣٢].

كالديرون هو المتبكر الحقيق للميلودراما الاسبانية (Zarzuela الاوبرا) ففي عام ١٦٥٧ قدمت له مسرحية شعرية رعوية (egloga) نفيسه خاصة بصيادي الاسماك بعنوان (مرفأ الجنيات (بنات البحر) – (El golfo de las sirenas) بطل هذه المسرحية اكد التوازن بين القوى الاسطورية لحاستي البصر والسمع ، صياد تتجاذبه هاتان الحاستان فتتقاذفانه من جانب الى اخر . ثم يبتلعه حوت كبير. ويقذفه.

ينتمي كالديرون ، متخطياً حدود الاوبرا الاسبانية ، الى فريق الكتاب الكبار للمسرح الاوبرالي العالمي . واذا كان موسيقيو العالم لم يلتفتوا اليه ، فأن الباحثين أسموه بـ (ميتاستاسيو) [٣٣] الأسباني [تشبيهاً له بالايطالي ، أن لم يكن اكثر منه عمقاً وجدية . لقد كان كالديرون شاعراً يمثل تطابق الاصوات المتباينة اكثر من تماثل الايقاع في ذلك، أي أنه شاعر توافق الاصوات اكثر من مجرد شاعر لحن أو ايقاع أصوات]. ومما ينبغي الإشارة أليه هنا هو أن ما في مسرح كالديرون الاوبرالي ليس شيئاً يأتي أليه من الخارج ، إنما ينبع من من داخل عمله الادبي ، كما لو كان شيئاً ذاتياً ، منبعثاً ومختمراً داخل الطبيعة التاملية لشاعريته.

كيف يمكن لعالم الفكر، بكل سموه ونوره، أن يعبر على المسرح الواقعي عن معان كبيرة تسبب الاندهاش للانسان ، بطريقة غير مباشرة ، بعيداً عن الموسيقى والمؤثرات الصوتية؟ هذا تساؤل نراه يلح على كالريرون في اعماقه... فاننا نلمح فيه ... من خلال اعماله – عاطفة قوية وقلقاً

عارماً للتعبير عن عالم الروح بكلمة واحدة . وبصورة مباشرة ، من خلال رؤية أو سماع ، أو لمس ... أن أعمال كالديرون تشكل في مجملها رؤى انعكاسية وتأمليه رصينة ، تبلغ في بعض الحالات أن تكون أسسا واضحة للنزعة الفلسفية المدرسية الكلاسيكية escolastica التي عرفتها القرون الوسطى ، وكان كالديرون ابرز من يمثلها في بلده أسبانيا. واوربيا كذلك ، فقد كان لهذا معناه الواضح في لوحات كالديرون ، المسرحية بسبب قدرته على جعل المفاهيم التاملية التي كان يتفحصها دائماً من الأعماق، بطريقة تجعل كل ماله صفة تجريدية عميقة ينقلب إلى محسوس له ابعاد المادية الواضحة في اللون والصورة . وبهذه القدرة الشعرية التاملية ، الاستثنائية ، احتل كالديرون مكانه مرموقة الى جانب دانتي وشيلر وغوته في الأدب العالمي[٣٤] . ويعد كالديرون بالنسبة لما سمي بقصيدة (الأسرار الكنسية Auto Sacramento) في الأدب الاسباني الشاعر الذي لا يوازيه أحد. والقصائد الخاصة بالاسرار الكنيسة جنس ادبي ، اعتاد الباحثون على تسميته بالقديم المهجور – غير الرائق . وأن ماكتبه كالدرون من هذا اللون ، كان عن اسرار الكنيسة الكاثوليكية في اسبانيا، والقربان المقدس . الا أن بعض اعماله من امثال : (الحياة حلم) ، (المسرح الكبير للعالم) ،(محاسن الذنب) ، (عشاء الملك بالتازار) .... تتضمن مقولاتها الفلسفية معتقدات كاثوليكية ارثودكسية متألقة بمستوياتها الشعرية الخالصة، وقد لا نجد فيها دقة (ثيولوجية) ؛ فأن سر الكنيسة انما هو فرض الاستسلام ، واستسلام (المخطئ) من خلال التضحية بالكبرياء ، الامر الذي يكتسي صيغة المعجزة في هذه الاعمال ، ويشكل ، من ناحية أخرى ، واحداً من الأسرار العامة التي يشعر بها الجميع ، لكن لا احد يفهم – وان كان الكل قد ما رسوا هذه التجربة–كيف يحرر الإنسان ذاته من قيود الحياة واضاليلها[٣٥] هذه القصائد لا تتمشى بالضرورة مع آراء الكنيسة .. أنها شعر يدرك من خلال الحواس الانسانية؛ فهي تعتمد حاستي البصر والسمع؛ كغيرهما من الحواس الاخرى. ويمكن الاعتراف بها على حقيقتها هذه أغاني وأناشيد أعياد وابتهاج ، ولوحات طرب ومسرات بالتحرير، تحرير الانسان من قيود الأرض. وبهذا تقدم هذه القصائد لمحات لمفاهيم ونظريات دينية، من بعيد وتأملات فلسفية لما يسمونه بالعهد القديم للكتاب المقدس ، والوصية لتداخله مع العهد الجديد – وكذلك المستقبل – توصلاً للمفهوم الجديد لحقيقة العالم وتاريخه من خلال الانتقالات المفاجئة للمناظر والاشخاص وتعددية اللغات. الإنسان في صيغته المعنوية يبدو كما لو أنه قد تحرر من قيود ذاته نفسها ، ممثلاً ذلك بروح عصرية ومشكلاً الدراما الداخلية والمهرجانات الشعرية للتحرير واضفاء الصفة الروحية الانسانية على الفرد مما يجري تنفيذه والاحتفال به نيابة عن الشعب[٣٦] يقدم لنا كالديرون نفسه في اعماله الكبيرة هذه شاعراً متفاعلاً مع هذه المفاهيم، وكاثوليكياً متشدداً في التعليمات اليسوعية ، مركزاً على التوجهات الاسبانية والبلاط الملكي، داعياً الى الحرية التي لا تمتلك كتلك التي يتمتع بها البورجوازي المتحرر ، وبتصرف ، انما هي حرية الانسان التي تتجسد فيه عملاً وخلقاً وتنبع اساساً من عظمة السلوك، وسمو الخلق والعزيمة ، وهي حرية الشهادة (الاستشهاد)،

حرية مقاومة الروح للمتطلبات المادية .. مقاومة العنف ، والاغراء، والتهديد والخطر .. هذا العنصر الذي يتجذر في معنى البطولة " بطولة الحرية يجسده كالديرون على احسن صورة ممكنة في مسرحية (الامير كونستانتي – El prineipe Gonstante) ، التي هي تراجيديا ، وفي الوقت نفسه تراجيديا معجزات ، فالموت يعني تحقيق ارادته الخاصة . وأيمانه هذا ربما يكون في الحقيقة أمراً تراجيدياً بالنسبة لاولئك الذين يطيلون حياتهم عن طريق الجبن .. وهذا ما لا يقره كالديرون مطلقاً .. أن كالديرون لم يكتب مسرحياته التراجيدية بالمعنى الاغريقي للتراجيديا (المأساة)، ولا بالمعنى الحديث لها، فالموت بالنسبة له لم يكن امراً مرعباً ، كما انه لم يكن امراً يدمر الحياة الروحية ... كما أن الخوف والحنان ، واليأس ، لم تكن هذه كلها بالنسبة له سوى اضغاث احلام لاصلة لها بالشعور والاحساس.

والانسان الذي له قدرة الاعتقاد وتحقيق الوجود الروحي يكون جديراً بالفن الاكثر هدوءا وسمواً ، والكثير من مسرحيات كالديرون والكوميدية منها بخاصة من نوع (العباءة والسيف) تمثل تماماً ذلك الهدوء الواضح الذي اتصفت به تلك الأعمال، الهدوء الذي يصور الروح النبيلة والمتسيدة، المتشبثة دائماً بالشرف وصفاء القلب ... وكذلك هدوء الفتيات المرحات والذكيات .. يضع كالديرون على المسرح رجالاً شباناً ، أرستقراطيين ، أصحاء في الروح ، ممن يفهمون بسرعة، وبسهولة، ويغازلون ويعشقون... اما أولئك الذين تسيطر عليهم الشكوك وسوء النية، والغيرة، والظنون، فتاتي حالاتهم دائماً عن طريق الصدفة، أو بسبب التعجل[٣٧] لكي يعطي لعمله الأدبي زخماً وفائدة اكبر نراه يحتاج الى كثير من المفردات كأنواع الأقنعة ، والأدوار ، والأماكن الاستثنائية – التي لها ابواب سرية، وممرات داخل انفاق تحت الارض، وخزانات مخبوءة ، واوراق متبادلة، وامور اخرى مماثلة .. ولقد سيطر كالديرون بقدرته الفنية على جميع هذه المفاصل الظريفة في العمل الادبي مما جسد صورة ابداعية واضحة ، وبخاصة في مجال استخدام تلك العناصر واغنائها بالمفاهيم والمنطلقات الفكرية. كان يروق لكالديرون انعاش البهجة الخفيفة في مسرحياته الكوميدية من خلال الاشخاص من الدرجة الثانية في المجتمع ، من امثال الخدم الظرفاء والمضيفات الماكرات ، لكي يؤدوا خدماتهم بدرجات متفاوتة من الاتقان لكن كالديرون يحرص على الايدخل في عالمه صفات التدني الخلقي، والضعف والجبن ولا عناصر الشهوانية والوحشية والفظاظة... انه يصف الاشخاص الذين يصيبهم الضلال، فيستسلمون، ويهمشون ويصبحون من غير ذوي الفاعلية والحيوية ، يصفهم بانهم غرباء بالنسبة له. ويصورهم بلوحات هزلية– كاريكاتيرات) [٣٨]... وينبغي ألا نعد كالديرون شاعر صوفيا ، بالرغم من أن ذلك يتوارد الى الذهن عادة ، كان كالديرون يوقر ويعمق أسرار الامور الدينية ، ويظهر تردداً في التدخل فيها ، كما أنه يقدر عالياً حرية الاختيار بالنسبة للانسان ويصفها بانها خير سماوي ثابت غير قابل للتغيير ، بيد أن هذه الإرادة الإنسانية ، إذا ما ضللت أو خدعت أو حرفت من قبل قوى غامضة قدرياً ، يمكن أن يستعيدها الانسان عن طريق الارادة الالهية المطلقة ولكن لا يمكن

بتاتاً أن تمنع عنه أو تحجب ، أو تخرّب ... ويكون هذا التحرير – لارادة الانسان من اجل العمل في الحياة على وجه الخصوص.

أن اوسيبيو Eusebio المخطئ الكبير في مسرحيته (عبادة الصليب) ، ودون فرناندو D. Fernando الشهيد القديس في مسرحية (الامير الدائم)...كلاهم ينتصران على الموت، ويحصلان على رحمة الرب ، نتيجة لحق روحيهما في ذلك وتحررهما من الاخطاء، ومن العار، وانهما لايهدأ لهما بال ولا يستريحان حتى بعد موتهما الا بعد أن يمنحا كل ما يحقق الخير لروحيهما ... أن هذه الطريقة في التمثيل من خلال جهود الارادة ، حتى اذا كانت تتعارض مع الفطرة الإنسانية ، أو تعرض لقضية روحية من ارفع المستويات، انما هي في الحقيقة مسالة تتعلق بنوع من أنواع الساحرية انفنية اكثر من تعلقها بالتصوف ... هذه الساحرية هي ضرب من الفنون الادبية التي تعالج موضوع الحياة والموت .. وليس بالضرورة أن تكون هذه الساحرية بمعناها التقليدي ولا بمعنى لا هوتي خاص ، ولو أن مسرح مالديرون يمكن أن تظهر فيه كلتا هاتين الناحيتين بصورة واضحة .. أن مسرح كالديرون ينحو في حقيقته الى نوع من الساحرية المبسطة جداً، تعبر عن حقيقة تجد تفسيرها مع غوته في (Oporeta Lila) وهو اوبريت قصير بالمقارنة مع الأوبريت الأسباني (Zarzuela) الكاليدرون .

ما نصيب اعمال كالديرون هذه من العلم والحكمة ؟

أنجز كالديرون اعماله الادبية من خلال ما عرف عنه من حرص على التعمق في الحكمة والتبصر ، اضافة الى رهافة الحس ودقة المشاعر في كل الموضوعات التي عالجها . كان غوته الالماني أفضل من تفهم كالديرون مقارنة بالاسبان الرومانتيكيين ، لقد اطلع غوته في اعمال كالديرون على ((الروح العالية والفهم الواضح)) [٣٩] اللذين كانا يمثلان القواعد الاساسية لاعمال كاليرون وما اتسمت به من روعة فنية كبيرة ومبالغة في دقة البناء اضافة الى اللون الشرقي في فلسفة الحياة التي مثلها ، بقصد منه أو بغير قصد . وانطلاقاً من مبدئية أن الحياة الدنيا ليست الا حلماً وثمة حد فاصل بينها ، وبين الحياة الاخرى ، الخالدة ، نجد في تصوير العالم لدى كالديرون طيفاً من الالوان المتمازجة ، وانواعاً من صفات التعبير المتناقضة بين سخرية ووقار ، عن لعبة غضب وخوف من لعب في الحياة وحنين الى الموت ويتجسد ذلك في اغنية اسبانية يجعلها كالديرون تعبيراً عن آرائه وهي [٤٠] :

Ven, muerte tan esondida ,
Que no te siente venir , porque el placer del morir
Non me Vuelxa a dar la vida

وترجمتها :

((تعال ياموت ، تعال بسرعة تامة ...

لا تجعلني أحس قدومك ، لان الحياة لم تعد

تمنحني سعادة الموت)) .

أن كل شيء في الحياة زائل . وان السعادة عند كالدرون ترى في الموت وليس في الحياة ... هذا هو ما عرضت له هذه المقطوعة. واذا كان ذلك ملغزاً ، فأن ما هو اكثر منه في الالغاز، والتشويق إلى استكناهه ، هو سوداوية كالديرون العميقة التي تشكل قمة مواقفه في الحياة ، حين يؤكد في معظم اعماله ، يقينه الثابت في أن حرية الروح تشع حول الوجود البشري ، فنراه شاعراً بطلاً لم يدع مجالاً لاظهار أي الم أو عذاب رومانسي يحس بهما .. اوشك في نفسه ، هو ، أو في عظمة شعبه الاسباني، ولم يسمح بان يكون هناك ما يدعو الى تفاؤل أو تشاؤم حول بلاده اسبانيا ، قوة أو ضعفا...أن ما يشعر به من حنين الى الموت يحتم الاتبعاث المحتوم، السريع الدائم لارستقراطية النبيل الذي يزدري باصرار حياة الرفاهية ويحتقر مجرد العيش في هذا العالم ، فيعبر عن ذلك كالديرون قائلاً: ((ولهذا بالذات انني مستمر في العيش حتى اليوم)) (٤١) .

واخيراً لعل الباحثين الاوربين الذي راوا : ((اذا كان لوبي دي فيغا يجسد عبقرية الامة فان كالديرون يوضح عبقرية عصر...انه اسباني عصره للقرن السابع عشر، وانه اكبر شاعر اسباني اتجه نحو الشكل المسرحي، كيف المنهاة وفقاً لعبقريته الخاصة، واعاد اليها صوت العظمة ، والعاطفة الحارة التي لم يبلغها لوبي))(٤٢)... لعل هؤلاء كانوا على حق . كما ارى من الحق ايضاً أن نتساءل اين يقف كاليرون من اديبين بارزين معاصرين له هما F. Gomes de Quevedo و G. Alvargeg de Toledo وهو ما احاول بحثه لاحقاً بمشيئة الله وعونه.

الخاتمة

لم يعد احد من الباحثين الاسبان يوافق اليوم على مقولة سبق أن ترددت في الدراسات الادبية حول كالديرون وتقويم نتاجه الادبي مقارنة بلوبي دي فيغا ، وبخاصة فيما يتعلق بمسرحية El Alealde de Zalamea وهو العنوان المشترك لمسرحيتين كتبهما كل من لوبي وكالديرون ، وقيل عن كالديرون بشأنها انه كان يكرر ما قاله لوبي دي فيغا ، ولم يات بجديد ، بيدأ أن ما توصل اليه النقاد الاسبان وغيرهم من الاوربيين الاخرين مؤخراً كان يؤكد أن كالديرون لم يكن مقلداً لسلفه

دي فيغا ، بل أن كالديرون تمكن من أن ينتزع من لوبي الريادة فعلياً في هذا الموضوع ولو أنه كان قد تناوله من بعده ، وبهذا الخصوص يرى (بريخت) أن الريادة في ابتكار الموضوعات المشتركة التي تطرق اليها كلا هذين الكاتبين كانت لكالديرون، لانه كان اكثر قدرة من لوبي دي فيغا، على الاضافة والتطوير، اذ لم يكن الاخير قد قدم في عمله هذا غير الشكليات السطحية ، بينما غرز كالديرون ازميله الذكي الحاد في كشف اعقد مشكلات الصراع بين الشكليات السطحية (العسكرية والمدنية) التي كانت تسيطر على المجتمع من ناحية، والمطالبة باسم الشعب لاسترداد ما اعتاد أصحاب القوة والنفوذ على أن يكونوا هم المانحين وفي اغلب الاحيان لما اسموه- بالامتيازات الطبقية، من ناحية اخرى، كما أن هناك تناقضاً واضحاً بين كالديرون ولوبي دي فيغا في كتاباتهما ، فبينما كان كالدرون مهتماً بالتأملات الفلسفية والدينية ، ولم تكن المشكلة الاجتماعية تستاثر كثيراً باهتماماته كان (الشعب) يمثل شأناً من شؤون (دي فيغا) في كتاباته، فعرف بالتالي كيف ينهل من المعين الغنائي لهذا الشعب . أما كالديرون فقد كان يطوف هائماً محلقاً يفتش عن رواب اخرى ذات ابعاد فكرية اكثر من كونها شعبية وبالتالي اكثر منها شمولية وكونية (انطولوجية) متخطية بذلك حدود كونها مجرد امور اجتماعية محدودة، كما أن كالديرون في مسرحيته هذه التي تجمع بينه وبين دي فيغا، ومسرحية Fuenteovjuna[٤٣]. كان قد عرف كيف يكتب المسرحيات التي تخصص اصلاً لمعالجة المعنى الديمقراطي للمسرح الاسباني ، ويصدق عليه تماماً .

كان كاليدرون يشكل مع غبرييل تيليز (تيرسودي مولينا ١٥٨٣-١٦٤٨) ولوبي دي فيغا ما اسموه بالثالوث المبجل المسرحي للعصر الذهبي في اسبانيا ، وقد تسيد كالديرون المسرح الاسباني بعد وفاة لوبي دي فيغا حتى نهاية القرن السابع عشر[٤٤].

مسرح كالديرون التراجيدي يتلخص في كونه تعبيراً عن مشاهد لاحداث جميلة ممتزجة بحس ادبي باهر فيه صفاء الفكر مع جراة في التثقيف ، وبخاصة في نوع (الاوتو) الدينية . أما موضوع التاريخ فقد عالجه كالديرون بقدرة فائقة في مسرحية الجميلة (El Alcalde de alamea) التي سبق ذكرها ، والتي يتالق فيها البطل (بدور كريسبو)، الفلاح ممجداً بساطة اتعشتالي النبيل باسلوب مثير آسر يزدري بكل كبرياء وعجرفة وبسبب تالق كالديرون في ميدان المسرحية الدينية (الاوتو) في اسبانيا ، خلع عليه لقب شاعر السماء اضافة الى كونه يمثل عبقرية عصر[٤٥].

الهوامش :

(١) Numancia مدينة في اسبانيا القديمة قريبة من مدينة (Soria)عاصمة الاقليم بالاسم نفسه في الوادي الاعلى لنهر دويرو مركز زراعي حافل بالكنائس.

(٢) Thomas Sackvillie: سياسي وشاعر انكليزي (١٥٣٠-١٦٠٨) مؤلف Gorbudue اول تراجيديا كلاسيكية في انكلترا . (موسوعة لاروس الصغرى ص١٥٥٧)

(٣)Miremee: كاتب فرنسي (١٨٠٣-١٨٧٠) مؤلف مسرحي يتميز اسلوبه بسرد الوقائع القصيرة بقناعة فكرية ، ودقة فنية (موسوعة الاروس الصغرى ص ١٤٣٧)

(٤)انظر : كامب ، جان : الادب الاسباني ترجمة بهج شعبان – ص٩٦.

(٥)أنظر :

Tieghem, Paulvan , Compendio de Historia Literoria de Europa . p.236.

(٦) انظر : كامب ، جان ، ص١٠٥.

(٧)بحث منشور في مجلة كلية الاداب ، العدد ٤٤ لسنة ١٩٩٨

(٨)انظر : كامب ، جان : ص٥

(٩)أنظر : المصدر السابق : ص٨

(١٠)انظر : المصدرالسابق : ص١٥

(١١)كلاوديانو شاعر لاتيني (٣٧٠-٤٠٤م) ولد في الاسكندرية . موسوعة لاروس الصغرى ص١٢٠٤.

(12)Tuegheu paulvan : Gompundio ..... p20 .

(١٣) انظر المصدر السابق ص٣٠

(١٤) انظر المصدر السابق ص٣٦

(١٥)انظر المصدر السابق ص٣٨

(١٦)أنظر : مندور (محمد : الادب ومذاهبه – ص٤٥)

(١٧)انظر : كامب : جان : ص٤٠

(١٨)انظر : كامب : جان : ص٤٠

(١٩)انظر : كامب : جان : ص٤٠

Ercilla y zuniga , Alonso de شاعر حماسي ملحمي عسكري اسباني (١٥٣٣-١٥٩٤) مجد الهجوم العسكري الاسباني على شيلي في قصيدة كبرى هي Araacana وهي وصف فيها المواجهات الدامية بالهجة عاطفية نشرت هذه القصيدة في جزءين عام ١٥٦٩وعام ١٥٨٩ (الموسوعة الفرنسية الصغرى ص١٦٢٨)

(٢٠) انظر : Tieghem , p. Van , P.55

(٢١) انظر :

Federico Ruiz morcuendo : La Novela Pieoresca , p.15

(٢٢) انظر : Tieghem, p.van p.60

(٢٣) انظر : Tieghem, p.van p.69

(٢٤) انظر :كامب ، جان – ص٩١

(٢٥) انظر: Tieghem . P.73

(٢٦) انظر : كامب ، أن – ص٩٣.

(27) Vossler , Carl escritores y poetas de espana p.72

(٢٨) كان المسرح المسمى El buen Retiro (الخلوة السعيدة) وهو ما زال حتى الان بهذا الاسم في مدريد العاصمة .

(٢٩) أنظر Vossler , Gorl , p:69

(٣٠) أنظر Vossler , Gorl , p:70

(٣١) أنظر Vossler , Gorl , p:73

(٣٢) أنظر Vossler , Gorl , p:72

(٣٣) etass asio – شاعر ايطالي (١٦٩٨-١٧٨٢) مؤلف تراجيديا موسيقية الموسوعة الفرنسية الصغرى – ص١٤٣٨

(٣٤) أنظر Vossler,Gorl P.73

(٣٥) أنظر Vossler,Gorl P.74

(٣٦) أنظر Vossler,Gorl P.76

(٣٧) أنظر Vossler,Gorl P.76

(٣٨) أنظر Vossler,Gorl P.77

(٣٩) أنظر Vossler,Gorl P.79

(٤٠) أنظر Vossler,Gorl P.79

(٤١) كامب : جان ، ص٩٤

(٤٢) Fuenteovejuna مسرحية تاريخية كتبها لوبي دي فيغا عام ١٦١٨ بطلها – قس عسكري لقلعة رباح هو فرنان غوميث غثمان ،قضي عليه سكان مدينة فوتيتي اوبيخونا بعد أن ملو طغيانه وحكمه الجائر . والقاضي الذي أصدر حكمه لم يحصل على جواب عن سؤاله : من قتل القس ؟ غير (مدينة فوتيتي أوبيخونا) .. (موسوعة لاروس الصغرى ص1306)

(٤٣) أنظر : كامب، جان : ص٨٧

(٤٤) أنظر : كامب، جان : ص٩٤

المراجع :

أ. (العربية) :

(١) كامب، جان: الادب الاسباني (سلسلة الاداب العالمية) ترجمة بهيج شعبان ، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ١٩٦٩.

(٢) منذور ، د. محمد : الادب ، ومذاهبه ط ٢– القاهرة ١٩٥٧.

ب. (الاجنبية) :

1- Morcuende , Federieo Ruag : La Novela Picaresca , Madrid (Sin Fecha).

2- Tieghem , Paul van : Compendio de la historia literaria de europa Buenos Airers 1951.

3- Vosster Carl; Eseritores y poetas de Espana . Madrid 1944.

4- Pequeno LAROUSSE ILUSTRADO. PARIS , 1984.